مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2570 0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 07 العدد: 02 جوان (2023) ص335/ 344

الأسس المعرفية للدرس النحوي البصري قراءة في روافد الاتجاه العقلي وتجلياته

Cognitive foundations of the Basri grammar lesson, reading in the tributaries of the mental trend and its manifestations

د. لزرق بلعباس*

جامعة أمحمد بوقرة – بومرداس (الجزائر)

b.lazrague@univ-boumerdes.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال: 2022/07/12

تاريخ القبول: 2023/04/24

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الاتجاه
- ✓ الدرس
- ✓ النحو

الملخص:

بدأ الدرس النحوي في البصرة بسيطا، يصف اللغة وصفا سطحيا، ثم سرعان ما تحول إلى التفكير العميق عند احتكاك النحاة بالعلوم العقلية الدخيلة كالفلسفة و المنطق، التي تعتمد أساسا على العقل، فأخذ الدرس النحوي البصري من هذه العلوم الاعتماد المطلق على العقل، مما أكسبه اتجاها عقليا محضا، تجلى في هيمنة القياس و التعليل و التأويل على الدرس النحوي البصري. فصارت تلكم أهم الأسس المعرفية لهذا الدرس.

Article info

Received *12/ 07 /2022*

Accepted *24/04/ 2023*

Keywords:
- ✓ *Trend:*
- ✓ *lesson:*
- ✓ *grammar.*

Abstract :

The grammatical lesson in basrah began a simple description of the language and superficial description and then quickly turned to thinking deeply when the friction of the grammarians with mental science exotic such as philosophy and logic, which are mainly based on the mind, the grammar lesson in basrah took from these science absolute dependence on the mind, this make ditacquire a purely mental trend, manifested in the dominance of el Kiass, Taalil And Taawilon the grammar lesson in basrah.

* المؤلف المرسل

- **مقدمـة :**

لم تزل بالدرس النحوي حاجة ملحة إلى البحث في ظروف نشأة النحو و العوامل المحيطة به، فالنحو لم يكن وحيد زمانه من العلوم بل هو مسبوق بإرهاصات و تفاعلات في المجتمع الإسلامي الحديث آنذاك، وهذه التفاعلات مست جوانب مختلفة من مناحي الحياة كالجانب السياسي المتمثل في اتساع الفتوحات والجانب الاقتصادي و المتمثل في تحول حياة العرب من البداوة و الخشونة إلى التحضر و الرقي، والجانب الاجتماعي الثقافي، ولعل السمة البارزة فيه هي اختلاط المجتمع العربي و دخول عنصر جديد فيه وهو الأعجمي.

كل هذه الظروف كانت سائدة في مجتمع إسلامي آخذ في التطور و الاتساع قبيل و أثناء نشأة النحو وإذا أخذنا في الاعتبار أن النحو نشأ لمحاربة اللحن المنتشر على ألسنة الأعاجم، وأن دخول الأعاجم في الإسلام تنامى بشكل ملاحظ، فلا شك نجد اللغة العربية أمام خطر محدق، وبالتالي يغدو البحث عن علم يحفظها عملا استعجاليا لا يحتمل التأخير.

وأول من انبرى لحفظ العربية أبو الأسود الدؤلي ثم جاء بعده تلامذته، وكلهم كان نزيل مدينة البصرة، وما البصرة إلا حاضرة من حواضر العالم الإسلامي تموج بما يموج به من تطور و حراك علمي و ثقافي وسياسي متنوع.

وإذا علمنا أن النحو نشأ في البصرة وتطور بها ردحا من الزمن، فلا شك أن البصريين لهم ما يؤهلهم لاحتضان هذا العلم و تطويره و الدفع به إلى الحياة في شكله الذي عهدناه، و لا غرو أن يدفعنا هذا إلى التساؤلات الآتية:

- كيف نشأ الدرس النحوي في مدينة البصرة؟ وما أهم خصائصه؟
- ما أهم الأسس المعرفية التي بني عليها الدرس النحوي البصري ؟
- لماذا تميز الدرس البصري بأعمال العقل؟ وكيف استعمله؟ ومن أين جاءه؟
- ما مظاهر العقل و تجلياته في الدرس النحوي البصري؟

- والمتتبع نشأة النحو العربي يسهل عليه ملاحظة أن هذا العلم نشأ في مدينة البصرة، ويستنتج أنه تميز ببعض الخصائص والتي قد يكون منها :

- الاعتماد الكبير على إعمال العقل
- ربما اكتسب العقل من علوم
- تجليات العقل في الدرس النحوي البصري قد تظهر في تجنب الوصف والإغراق في القياس والاعتداد به.
- قد يكون أيضا من مظاهر إعمال العقل عند البصريين اعتماد طرق مختلفة في استنباط المسائل، وهذه الطرق قد تكون مأخوذة من أهم الأمم المجاورة للعرب كالفرس واليونان مثلا.

ولعل الباحث في تاريخ النحو البصري وتميزه، يجد نفسه أمام تحد غاية في الأهمية، إذ عليه أن يثبت هذا التميز وتجلياته ومظاهره، وقد يكون الركن الأساس فيه هو إعمال العقل والاعتداد به، وعليه فالهدف الأسمى هنا هو : إثبات تميز الدرس النحوي البصري بالعقل الذي يكاد يكون الاتجاه الأبرز فيه، ومصدر هذا الاتجاه وأهم تجلياته.

ولتحقيق هذا الهدف يجب العودة إلى نشأة الدرس النحوي البصري مما يفرض منهجا تاريخيا، وكذا وصف تميز النحو في البصرة مما يفرض منهجا وصفيا ينزع تارة التحليل وطورا للمقارنة، كلما رمنا إبراز تميز النحو في البصرة عن غيره.

1-ظروف نشأة الدرس النحوي البصري: البصرة مدينة عراقية أنشئت في زمن الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه -، و البصريون هم أول من اهتم بجمع اللغة العربية و حفظها من اللحن المستشري، و قد كان غرة هذا العمل أبا

الأسود الدؤلي و الذي ينسب إليه وضع النحو العربي، وإن كان بعض الدارسين يرجع وضع النحو إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي، ولذلك يقول المستشرق الألماني كارل بروكمان: "...و الخليل بن أحمد الفراهيدي هو أول من نهج مسالك جديدة في علم اللغة العربية، وهو تلميذ أبي عمرو بن العلاء لذا فهو يعتبر المؤسس الحقيق لعلم النحو العربي"(بروكلمان، 1974، صفحة 131)، وأيًا كانت بداية الدرس النحوي البصري، أكانت مع أبي الأسود أم مع الخليل، فإن ذلك لايفسد لبصرية النحو شيئا.

و المتتبع الحذر لنشأة الدرس النحوي في مدينة البصرة لا يربكه الاختلاف في الانطلاقة الفعلية لهذا الدرس، بل إن هذا الاختلاف في المؤسس الحقيقي للنحو البصري يجعلنا نلقي الضوء على دور كل واحد من علماء البصرة على أمل الوصول إلى وسم الدرس البصري في مراحل مختلفة بحسب تعاقب العلماء عليه، و إجمالا فإن تتبع الدرس النحوي البصري يفضي إلى القول -ببعض الأريحية- إن النحو أثناء نشأته الأولى في البصرة مر بمرحلتين مختلفتين هما:

1-1-المرحلة الأولى :مرحلة السطحية و الانطباع: وفي هذه المرحلة نجد المجهودات الأولى التي قام بها أبو الأسود الدؤلي (ت69ه) وتلامذته، فإن كانت نسبة وضع النحو إلى أبي الأسود أمر مقطوع به فيقول أبو الطيب اللغوي (ت351ه):" ... وكان أول من رسمه، فوضع منه شيئا جليلا، حتى تعمق النظر فيه بعد ذلك.." ، فإن مجهودات أبي الأسود لم تخل من البساطة و السطحيةو تلك سنة العلوم في بداياتها، و ليس النحو استثناء في ذلك، فقد حكم عمل أبي الأسود الممارسات الذوقية الخالصة التي تنم عن السطحية في معالجة الظواهر اللغوية،"وهكذا يصف أبو الأسود الظاهرة وصفا لغويا، ولم يعبر بالاصطلاح لأنه لا يستطيع ذلك"(الطيب، صفحة 8)، فافتقاره للمصطلحات المعبرة عن المفاهيم المدروسة ما هو إلا دليل سطحية

وانطباعية تناسب بداية نشأة علم ما، على أن ذلك لا يقلل من المجهود الخطير الذي قام به الرجل في وضع أسس النحو، فهو الذي وضع علامات الإعراب من فتحة و ضمة وكسرة على شكل نقاط تحت الحرف أو فوقه، وهذا العمل أيضا يشي ببعض الارتجالية و العجلة، ويؤكد بأن الرجل" لم يكن ليعرف اصطلاحات (الفتح و الضم و الكسر و التنوين) ولا يعرف (الرفع و النصب و الجر و الوقف و السكون) ولأنه لايعرف أسماء الحركات فإنه لجأ إلى وصفها حسيا"(القوزي، 1981، صفحة 32)، وهنا يُرى أبو الأسود واصفا للظواهر اللغوية وصفا حسيا سطحيا، عاجزا عن إطلاق المصطلحات المناسبة عليها.

على العموم، فإن القول بأن أبا الأسود الدؤلي هو واضع النحو أمر لا مراء فيه، غير أن مجهودات أبي الأسود الدؤلي وتلامذته في بدايات وضع النحو على خطورتها، إلا أنها محكومة بالسذاجة و السطحية و الارتجالية، ومن أبرز مظاهر ذلك الافتقار للمصطلح المناسب، و اللجوء إلى الوصف الحسي المضطرب وإن كان بعض الدارسين ينسب إلى أبي الأسود وضع أبواب كبرى في النحو كباب الفاعل و المفعول به

وغيرها، فإن هذه تبقى مجرد روايات هشة لا تصمد أمام رياح الشك العاتية، فنجد مثلا أن الدكتور أحمد أمين يقول :<<فالظاهر أيضا أن عمله في أول الأمر كان ساذجا بسيطا، وهو وضع علامات الإعراب الرفع و النصب و ما إليها، ولم يزد على ذلك، فلما سمى العلماء بعد بعض ضروب الرفع فاعلا، وبعض ضروب النصب مفعولا، قالوا: إن أبا الأسود وضع باب الفاعل و المفعول، وإن كان أبو الأسود نفسه لا يعرف فاعلا ولا مفعولا"(القوزي، 1981، صفحة 32)، فيظهر هنا أن أبا الأسود ما كان ليضع أبواب النحو التي نسبت إليه جزافا وأن عمله لا يعدو أن يكون وضع أوليات و مبادئ في النحو تتناسب و بدايات نشأة النحو، و تتماشى و عقلية أبي الأسود التي هي وليدة البيئة البصرية عصرئذ.

1-2-المرحلة الثانية :مرحلة النضج و العقلنة: ما إن تنقضي مرحلة السطحية بأفول عصر أبي الأسود، حتى يطالعنا تغير في غاية الأهمية في سيرورة الدرس النحوي البصري، كان للعقل فيه دور لافت وتلوح تباشير هذا التغير مع عبد

الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت117هـ)، فقد " كان أول من بعج النحو ومد القياس و العلل"(أمين، صفحة 609)، كما أنه كان " أعلم أهل البصرة، و أعقلهم، فرع النحو، وقاسه.."(الجمحي، 1988، صفحة 30)، ويبدو أن عمل عبد الله بن أبي إسحاق كان أكثر نضجا واتساما بالعقل، وتمثل ذلك في" تفريع النحو عن أصوله التي وضع عليها في مرحلة سابقة، لأنه تمكن من تلك الأصول بعد دراستها على أصحابها"(الطيب، صفحة 12)،بالإضافة إلى ذلك قام "بالتوسع بالقياس على ما ورد عن العرب.."(علامة، صفحة 45)، وعليه يمكن أن نخلص إلى بدايات مظاهر العقل في الدرس النحوي عند عبد الله بن أبي إسحاق المتمثلة في :

- تفريع أصول النحو، أي تفصيل ما كان مجملا، وفي هذا ما لا يخفى من إعمال للعقل.
- مد القياس، أي أنه وجد القياس قبله، لكنه توسع فيه، و أوغل في استعماله في ميدان النحو فالرجل كان"أشد تجريدا للقياس"(الجمحي، 1988، صفحة 30)، بل اعتبر القياس جزءا لا يتجزأ من النحو، حتى جاء بعده من قال:

إنَمَا النَحْوُ قِيَاسٌ يُتَبَعُ وَبِهِ فِي كُلِ أَمْرٍ يُنْتَفَعْ*(ينسب البيت لعلي بن حمزة الكسائي أحد أئمة الكوفة.)

ولا أدلَ على العقل من القياس، لأنه حمل للمقيس على المقيس عليه.

- شرح العلل، فكان من مجهودات ابن أبي إسحاق البارزة " التوسع بالحديث عن العلل الموجبة لتغيير الإعراب بين شكل تعبيري و شكل آخر"(علامة، صفحة 45)، ويمكن القول عند التأريخ للتعليل النحوي إن :<< بداياته الأولى كانت مع ابن أبي اسحاق>>(علامة، صفحة 64)، ويكفي أن نراجع الواقعة التي حدثت بينه وبين الشاعر الفرزدق في البيت:

عَضَ زَمَانٌ يَابْنَ مَرْوانَ لَمْ يَدَعْ مِنَ المَالِ إلاَ مُسْحِتًا أَوْ مُجَلَفٌ**

(البيت للفرزدق، وهو من الشواهد النحوية المعروفة.)

فقد طلب عبد الله بن أبي إسحاق من الفرزدق تعليله لرفع كلمة (مجلف) ومحلها النصب، مما أغضب الفرزدق وجعله يهجوه فيما بعد.

وما دامت العلة هي طلب تبرير للحكم الإعرابي، و بالتالي منطقة النحو و عقلنته، فهي دون أدنى شك عملية عقلية صرفة.

وعموما، فإن كان عصر عبد الله بن أبي إسحاق يمثل بداية إعمال العقل في الدرس النحوي البصري بامتياز، فإنه يعبر أيضا عما يأتي بعد ابن أبي إسحاق من مراحل لاحقة، و التي لا تزد إلا إيغالا في العقل وعليه يمكن الركون إلى عصر ابن أبي إسحاق عنوانا لزمن العقل في الدرس النحوي في البصرة.

ومع اطمئناننا إلى كون عبد الله بن أبي إسحاق أول من عقلن النحو في البصرة، ونقله من بساطته المعهودة مع أبي الأسود إلى العقلنة، و بالتالي فتح الباب مشرعا لمرحلة جديدة بدأت معه، ولم تنته عنده بل استمرت مع من جاء بعده، كل هذا يبيح لنا أن نتساءل:

- كيف انتقل النحو من مرحلة سطحية البساطة إلى عمق العقل؟ هل كان بن أبي إسحاق وحده كفيلا بذلك؟ أم هناك دواع و أسباب مهدت لذلك ربما تفوق ابن أبي إسحاق؟

2- روافد العقل في الدرس النحوي البصري:

أسلفنا ذكرا أن عبد الله بن أبي إسحاق هو من نقل الدرس النحوي البصري من الوصف السطحي إلى عمق التصور و إعمال العقل، وذلك بتفريعه للنحو، ومده للقياس، و شرحه للعلل، غير أن هناك تساؤلات تفرض نفسها، من قبيل: كيف قام بن أبي اسحاق بكل هذا الجهد؟ ومن أين له بالقياس و التعليل و تفريع النحو؟

إن كون ابن أبي إسحاق يمثل نقطة تحول كبرى في الدرس اللغوي عموما في البصرة، يجعلنا نلقي الضوء على بيئته الزمانية و المكانية، وغير خاف أن الرجل عاش في البصرة ما بين القرنين الأول و الثاني ولا يجب أن نذهل عن الحركة العلمية الآخذة في الازدهار في هذين القرنين، فبالإضافة إلى العلوم النقلية التي كانت سائدة (القراءات، التفسير..)،ازدهرت العلوم العقلية الدخيلة، و ألقت بظلالها على النحو

لذلك نجد أن الدراسات اللغوية عموما و النحوية خصوصا تقدمت تقدما ملحوظا متأثرة شأنها شأن علوم إسلامية أخرى بمعطيات هذه العلوم العقلية الدخيلة، والتي منها الفلسفة و المنطق وعلم الأصول، ولعلنا لا نسرع إذا قلنا إن الدرس النحوي في هذه الفترة صارت "صلته أوثق ما تكون بعلمي الكلام و الأصول"(الراجحي، 1986، صفحة 17)،وقد توثقت هذه الصلة بقانون التأثر و التأثير بين هذه العلوم.

إذن، وبعد أن فعلت العلوم النقلية غير العقلية (القراءات) فعلتها في النحو أثناء نشأته، آن للعلوم العقلية الدخيلة (الفلسفة و المنطق، علم الكلام، الأصول) أن تفعل فعلتها في تطور الدرس النحوي بإذكاء العقل فيه، ومن هذه العلوم:

2-1-المنطق الأرسطي: قد يكون المنطق و الفلسفة من أهم روافد التي عبر من خلالها العقل إلى النحو وإن لم يتيسر لنا الجزم إن كان النحو العربي قد استفاد من المنطق اليوناني عن طريق السريانية، وتبقى هذه العلاقة مشوبة بالغموض ومحل اختلاف وجدل، لذلك قال المستشرق بروكلمان:"...ومن ثم لا يمكن إصدار حكم قطعي مبني على مصادر ثابتة للحسم برأي في إمكان تأثر علماء اللغة الأولين بنماذج أجنبية و الرأي الذي يتكرر دوما عند علماء العرب، وهو أن علم النحو انبثق من العقلية العربية المحضة، بغض النظر عن الروابط بين اصطلاحات هذا العلم ومنطق أرسطو..(بروكلمان، 1974، صفحة 123)"[14]، كما زعم "بعض المستشرقين أن علم النحو منقول من لغة اليونان، لأن وضعه في العراق إنما كان بعد خلاط العرب بالسريان وتعلمهم ثقافتهم وللسريان نحو قديم ورثوه عن اليونان"(الطنطاوي، الصفحات 21-22) وعليه يبدو أن النحو العربي عند بعض الدارسين عربي المنشأ غير أنه تأثر بالمنطق الأرسطي وخاصة في المصطلحات، والرأي عند آخرين أكثر تطرفا، فحسبهم النحو مأخوذ من لغة اليونان عن طريق السريانية القديمة في العراق.

وفي الرأيين يظهر أن النحو العربي به مس من المنطق و الفلسفة اليونانية، ولكن لايعلم تأثير المنطق اليوناني في الدرس النحوي، أكان في قليله أم في كثيره؟ لذلك حري بنا أن نستأنس ببعض الآراء التي تذهب في اتجاه الترجيح و التوسط، و في هذا المسعى نجد أن أحد الدارسين يقول:"ونحن نذهب في هذه المسألة مذهبا وسطا، وهو أنه أبدع العرب علم النحو في الابتداء، وأنه لا يوجد في كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو و الذين تقدموه، لكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان في بلاد العراق تعلموا أيضا شيئا من النحو"(الطنطاوي، صفحة 22)، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نصل إلى ما يبعث على الارتياح من الاختلاف السابق فالنحو العربي منبثق من العقلية العربية المحضة في بداياته، ثم ما لبث أن اختلط بالفكر اليوناني بعدما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان.

وحاصل القول إن الدرس النحوي، و إن انطلق من العقلية العربية الصرفة التي يغلب عليها الجانب النقلي والروائي، غير أنه سرعان ما جنح للأخذ من العلوم العقلية، ومن ثم أخذ الدرس النحوي يتسم بالعقلية شيئا فشيئا آخذا من هذه العلوم التي تنبه لها العرب حديثا أنذاك اصطلاحاتها وبعض آلياتها في البحث والاستنتاج.

ولعل كل ما يقال عن الدرس النحوي عموما، لا يمكن أن يفارق قيد أنملة ما يقال عن الدرس النحوي البصري، فما الدرس النحوي في بدايته إلا درس نحوي بصري بامتياز.

2-2- **العلوم الإسلامية:**

أ- أصول الفقه: يمكننا القول إن النحو نشأ في مناخ إسلامي عربي محض، محفوفا بعلوم إسلامية تبادل معها التأثر والتأثير، ومن جملة العلوم التي تمثل المناخ الإسلامي العام الذي نشأ فيه النحو نجد أصول الفقه الذي هو" القواعد

التي يتوصل بها استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة، وهو بهذا يمثل منهج البحث عند الفقيه، وقد ظهرت المحاولات الأولى في عصر الصحابة رضوان الله عليهم، ثم تطور مع الأئمة الأربعة، أبي حنيفة (ت 150ه)، ومالك (ت179ه)، و الشافعي (ت204ه)، وابن حنبل (ت241ه)" (الراجحي، 1986، صفحة 15) فأصول الفقه من العلوم الإسلامية التي تزامنت نشأتها ونشأة النحو، كما أن هذا العلم أي أصول الفقه علم يقف موقفا وسطا بين العقل و النقل، إذ "يضيف (العقل) إلى (النقل) وهو (عقل) إسلامي يستبعد الباحثون تأثره بعوامل خارجية"(النشار، 1961، الصفحات 65-66)، مما يجعل علم أصول الفقه يجمع بين النقل و العقل الذي هو عقل إسلامي خالص.

وما دام استقر في النفس بما لا يدعو للقلق أن أصول الفقه علم إسلامي يجمع بين النقل و العقل

وأن أصول الفقه نشأ مع النحو في زمانين متقاربين و في بيئة إسلامية، فيمكننا القول – دون مبالغة- إنهما تبادلا التأثير.

ويزداد التأثير و التأثر بين الفقه و الدرس النحوي خاصة البصري منه وضوحا وجلاء إذا علمنا أن الخليل بن أحمد الفراهيدي كان معاصرا للإمام أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفي الذي يقوم على الرأي و العقل، وأن سيبويه وهو من هو في المدرسة البصرية عاصر تلميذ أبي حنيفة أبا يوسف.

ومن هذا التلاقح و التلاقي بين أصول الفقه والنحو البصري، يمكننا أن نخلص الى أن أصول الفقه أمد النحو البصري بالطابع العقلي الذي جعله لا يتوقف عند ظواهر اللغة توقف الوصف المباشر، وإنما يتعداه إلى تفسير هذه الظواهر تفسيرا عقليا.."(الراجحي، 1986، صفحة 19)[19]، ويعترف ابنجني وهو من نحاة القرن الرابع الهجري وينسب نفسه للبصريين، بأخذ النحو عن الفقه الجانب العقلي، إذ يقول في خصائصه: "كتب محمد بن الحسن رحمه الله إنما ينتزع أصحابنا منها العلل (جني، 1954، صفحة 163)"[20]، ويقصد بمحمد بن الحسن تلميذ أبي حنيفة الفقيه و المحدث، ويقصد بأصحابنا البصريين، فهو يعد نفسه منهم، وبهذا لا يخفي تأثر الدرس البصري النحوي بأصول الفقه و خاصة الفقه الحنفي الذي انتقل منه العقل إلى النحو البصري.

ب-**علم الكلام**: لم يكن أصول الفقه العلم الوحيد الذي نشأ مزامنا للنحو، بل نشأ أيضا علم آخر أصبح مع العلمين السابقين (أصول الفقه و النحو) يشكلون ثلاثية متماسكة، كانت " أكثر العلوم تبادلا للتأثر و التأثير"(الراجحي، 1986، صفحة 17)، وثالث هذه العلوم الثلاثة هو علم الكلام، ويعرف الفارابي (ت339ه) هذا العلم بقوله:"ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء و الأفعال المحمودة التي صرح بها واضع الملة وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل"(محمدالفارابي، 2007، صفحة 131)[22]، فعلم الكلام نشأ للدفاع العقيدة الإسلامية السوية بالأدلة العقلية و النقلية، وتزييف كل ما خالفها، فهو يحتاج إلى العقل لإعماله في الحجاج و الاستدلال، وذلك بإيراد الأدلة و عرض الحجج لإثبات الحق و إبطال الباطل ودحض الشبهات، و عليه كان لهذا العلم قداسة تبرر وجوده و انتشاره المتزايد.

ومن مظاهر انتشاره تعدد الفرق الكلامية، و التي كان من بينها المعتزلة، ورأسها واصل من علماء (ت 131ه)، وقد ظهرت هذه الفرقة في مدينة البصرة، فهل كان لها تأثير على النحو هناك؟

أسلفنا أن النحو و أصول الفقه و علم الكلام علوم شكلت ثالوثا تبادل التأثر و التأثير، وأن علم الكلام علم أخذ به العرب للدفاع عن العقيدة الصحيحة بالحجة و الدليل، فليس غريبا أن يستعيض النحاة بهذا العلم عن العلوم النقلية للدفاع عن أفكارهم و آرائهم و تجاربهم النحوية، أضف إلى ذلك أن وجود أهم الفرق الكلامية في مدينة البصرة و نقصد المعتزلة، سيغذي بالتأكيد الدرس النحوي هناك ويمده بطرائق جديدة يستند من خلالها إلى الحجج و البراهين و الاستدلال للدفاع عن رأيه عوضا عن النقل و الوصف الخارجي للظواهر اللغوية.

ولعمرك إن هذا هو صميم العقل الذي سرى إلى الدرس النحوي البصري غب احتكاكه بأهل علم الكلام، وخاصة المعتزلة، فلا يفاجئنا أن نجد الكثير من النحاة معتزلة ومن بينهم: سعيد بن مسعدة أبو الحسن الأخفش الأوسط، محمد بن المستنير أبو على المعروف بقطرب، علي بن عيسى أبو الحسن الرماني، وكل هؤلاء من نحاة البصرة مثلوا الدرس النحوي البصري في مراحل زمنية متفاوتة.

فما من شك أن النحو وبعد نشأته، لم يمض عليه وقت طويل حتى انتقل إلى العقلنة، غير آبه بإرث العلوم النقلية التي وجدت معه، وربما حتى قبله، ولعل المتتبع المنصف لنشأة النحو في البصرة و تطوره، لا يندهش من هذا التحول، خصوصا إذا أخذ بعين الاعتبار بأن النحو لم تنشأ معه علوم مليه نقلية فحسب، بل سرعان ما تداركه المد من العلوم العقلية الحكمية كالمنطق و أصول الفقه وعلم الكلام، التي كان لابد لها من التأثير فيه.

وإذا سلمنا أن هذه العلوم أثرت في الدرس النحوي في البصرة أو في غيرها، يصبح من المشروع أن نبحث عن تجليات هذا التأثير، وجدير بنا التساؤل :ما أهم مظاهر العقل في الدرس النحوي البصري؟

3- تجليات العقل في الدرس النحوي البصري:

كان طبيعيا جدا أن دخول الكثير من العلوم إلى ساحة الحضارة العربية الإسلامية عن طريق الترجمة و غيرها، سيؤدي إلى تغيير طريقة تفكير العرب في علومهم الخالصة، وطبيعي أكثر أن تجليات التفكير العربي المستحدث لن تخفى أو تستتر.

بل إن علماء العرب طفقوا يطبقون آليات التفكير المكتسبة حديثا عندهم على علومهم، ومن هذه العلوم النحو، و الذي كانت بوادره بصريه، ومن آليات التفكير المكتسبة من العلوم الوافدة، كان العقل وبسط سطوته على العلوم، وبخاصة النحو، حيث أصبح إعمال العقل يُرى رأي العين في الدرس النحوي، متجليا فيما يأتي:

3-1-القياس: من أهم الأصول التي بني عليها النحو، ويعرف عند النحاة بأنه:" حمل غير المنقول على المنقول إذا كان في معناه "[23] (السيوطي، 1998، صفحة 24)، وللقياس أهميه كبرىفي النحو، حتى قيل:(إنما النحو قياس يتبع)،فيكاد النحو يكون كله قياسا عند بعضهم، لذلك يقول ابن جني:"مسألة واحدة من القياس أنبه و أنبل من كتاب لغة عند عيون الناس، ويحكي عن أستاذه الفارسي قوله: أخطئ في خمسين مسألة في اللغة ولا أخطئ في واحدة في القياس.."[24](عيد، 1989، صفحة 69).

والمتتبع لمسلك القياس في النحو، سيجد أنه " أحد مبادئ المدرسة البصرية الثلاثة التي قامت عليها.." [25](علامة، صفحة 53)، ويعود إلى عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت117ه)، وهو أول من قاس النحو، ثم جاء بعده الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175ه)، و الذي عُد رافع لواء القياس و كاشف قناعه، ثم جاء تلميذه سيبويه(ت180ه) وكتابه حافل بالقياس"[26] (علامة، صفحة 61)، فلسنا بحاجة إلى القول إن القياس كان من صميم الدرس النحوي البصري.

وولوج القياس ميدان النحو كان غب استشراء العلوم الدخيلة وخاصة الفلسفة و المنطق، فهو موضوع مستحدث مستفاد منهما، وليس أدل على ما قلنا من تشابه القياسين في المنطق و النحو، على أن الأول أسبق زمانا، وكلاهما عبارة عن " آلة به تُحصل المعلومات التي لم تكن حاصلة، فتصير معلومة بالروية" (الشهرستاني، 1992، صفحة 159)[27]،لذلك يمكننا القول إن القياس هو ابن المنطق، الذي عاش في كنف النحو لاحقا نتيجة إعمال العقل في الدرس النحوي و البصري.

وفي القياس جهد معتبر من إعمال للعقل، يبرز في نقل حكم المقيس عليه إلى المقيس، أو حكم الأصل إلى الفرع لوجود علة جامعة بينهما (الأصل و الفرع)، وبهذا يكون القياس آلة طيعة لإنتاج عدد من القواعد النحوية استنادا إلى قواعد شبيهة وجدت قبلها، كرفع نائب الفاعل استناد لشبهه بالفاعل، ومثاله أيضا إعلال الجمع أو تصحيحه حملا على

مفرده، لأن المفرد أصل و الجمع فرع عنه وهكذا، وكل هذا يحمل كمًا من المقارنة و الاستدلال و الاستنتاج، وهذا أثر واضح للعقل.

3-2- **التعليل:** واحد من أهم أصول النحو، ويُعرف التعليل عند النحاة بأنه:" العملية التي تكشف السبب الموجب الداعي إلى التغيير في حركات الإعراب، ولقد دعا إليه ووجه إلى إيجاده طول المراقبة من قبل العلماء حتى تم الكشف عن أسراره..(علامة، صفحة 36)"[28]، وقوله:(طول المراقبة)قد يشي بوجود العقل في هذه العملية الإجرائية، وطول المراقبة للحركات الإعرابية و آلية التغيير فيها يكشف عن أسباب هذا التغيير الحاصل ويشرح أحدهم التعليل عمليا، فيقول:" وذلك مثل سؤال السائل عن (زيد) من قولنا (قام زيد) لم رفع؟ فيقال: لأنه فاعل، وكل فاعل مرفوع.."[29](مضاءالقرطبي، صفحة 36)، فالتعليل ما هو إلا محاولة من النحاة لتبرير تغير الحركات الإعرابية، ومن هنا حري بنا أن نتساءل: ما مدى قدم التعليل في الدرس النحوي عموما و البصري منه على وجه الخصوص؟

يبدو التعليل – في أبسط صوره – قديما قدم الدرس النحوي، وهو متمخض عن العقلية العربية الصرفة، فينقل صاحب –الاقتراح– قول الخليل بن أحمد:" إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها وعرفت مواقع كلامها، و قامت في عقولها علله"(السيوطي، 1998، صفحة 81.)[30]، وفي هذا دليل على أن التعليل يرجع أساسا إلى السجية و الطباع و الفطرة عند العرب، و لا مجال فيه للعقل ويعضد هذا أن التعليل كان يقوم به أبو الأسود الدؤلي عند قبوله لأنماط معينة من الكلام، ورفضه لأخرى، وإن لم يذكر أبو الأسود مصطلح التعليل.

ومما سبق يبرز تناقض واضح في ماهية التعليل في الدرس النحوي، فمرة يبدو من سجية العرب وطباعهم، ومرة أخرى يبدو ناتجا عن طول المراقبة و استحضار التفكير، فأيهما التعليل؟

لإزالة هذا التناقض، ومعرفة التعليل النحوي على حقيقته يجب أن لا يعزب عن أذهاننا أنواع العلل ولقد قسم النحاة العلل إلى: أُول وثوانٍ و ثوالث، "والعلل الأُول بمعرفتها تحصل لنا المعرفة بنطق كلام العرب المدرك منه بالنظر"[31](السيوطي، 1998، صفحة 131)، وهذه العلل هي الموجودة بالفطرة و المأخوذة من كلام العرب، وهي التي علل بها النحاة الأوائل أحكامهم، ومثالها: رفع (زيد) في قولنا: (قام زيد) لأنه فاعل، وهذه لا تحتاج إلى تدبر العقل

و العلل الثواني و الثوالث وهي الناجمة عن طول التفكير و التأمل، وقد اهتدى إليها النحاة بعد تطور الدرس النحوي، لأنها مرحلة لاحقة عن العلل الأُول، ومثالها أن يستمر السائل في سؤاله عن (زيد) فيقول بعد أن قال لم رفع (زيد): لماذا الفاعل مرفوع في العربية؟ وهنا يبدو أن العقل بدأ يعمل عمله في الدرس النحوي ومن ثمة بدأ النحاة في التعليل المتواصل، ولم يكتفوا بالعلل الأُول.

وتأسيسا على ما سبق، يمكننا أن نستنتج أن التعليل كان من مظاهر العقل في الدرس النحوي

و خاصة البصري، إن لم يكن في أوله ففي لاحقه، ويمكننا أيضا أن نوضح مسلك التعليل في الدرس النحوي البصري كما يأتي:

- المرحلة الأولى: كان التعليل سجية و طبعا عند النحاة الأوائل كأبي الأسود وعبد الله بن أبي إسحاق، وهنا علل النحاة الأحكام وفق ما نطق العرب و لا مكان للعقل في هذا، وهذه العلل الأُول.
- المرحلة الثانية: كان التعليل ناتجا عن طول مراقبة لما تطور الدرس النحوي و ارتقى العقل العربي بوجود علوم عقلية دخيلة كالفلسفة، وهنا أصبح التعليل عملية عقلية، وهذا في العلل الثواني و الثوالث.

3-3- **التأويل:** واحد من أهم الأصول التي يجدها المتدبر بارزة في الدرس النحوي البصري،" ويُعرف لغة بأنه التدبير و التقدير و التفسير وأما اصطلاحا فهو صرف الكلام عن ظاهره إلى وجوه خفية تحتاج التقدير وتدبر، و أن النحاة قد أولوا

الكلام و صرفوه عن ظاهره لكي يوافق قوانين النحو و أحكامه"(عيد، 1989، الصفحات 155-157)،وها نحن نرى أن التأويل هو التدبر و التقدير من أجل موافقة الكلام لقوانين النحو، ولا يخفى ما في هذا من إعمال للعقل.

ومسلك التأويل إلى الدرس النحوي، قد تكون بدايته في الدرس النحوي الكوفي، وقد انتقل إليه من علم الكلام، فمؤسس الدرس النحوي الكوفي في القرن الثاني الهجري أبو جعفر الرؤاسي من أعيان الشيعة الباطنية"(عيد، 1989، صفحة 160) وهذه الفرقة الكلامية ترى أن لكل ظاهر باطنا، وأن لكل تنزيل تأويلا، و بالتالي بث الرؤاسي التأويل في الدرس النحوي الكوفي، و الرؤاسي أخذ عنه حتى الخليل، ومن ثمة انتقل التأويل إلى الدرس النحوي البصري، ليزداد تطورا مع من جاء من النحاة بعد الخليل.

فوجود التأويل في الدرس النحوي البصري، هو نتيجة منطقية لمباشرة العقل للنحو في البصرة

واستبداده به وبسط سطوته عليه عبر تعاقب النحاة البصريين، ليزداد جلاء ووضوحا كلما تطور الدرس النحوي، و إذا تتبعنا مظاهر التأويل في النحو، يسهل على استجلاء دور العقل فيها، ومن مظاهر التأويل:

- **الحذف:** وهو في مثل: متعلقات المجرورات، وباب الاشتغال، وغيرها وفي هذه الحالة يؤول محذوف ما، ولابد في تأويل هذا المحذوف من استحضار العقل كي يتماشى المحذوف مع الموجود في المعنى و اللفظ (الإعراب)، أو كما قال أحدهم:"التقدير في الكلام لتصحيح اللفظ و المعنى(الكفوي، 2011، صفحة 236)"، و لتأويل المحذوف ضروب بعضها محمود في النحو، يستقيم به اللفظ (الإعراب) و المعنى، و بعضها غير ذلك، بل إن تقدير المحذوف و تأويله في هذه الحالة يكون عيًّافي الكلام لا طائل منه، وذلك مثل تأويل الناصب المحذوف بعد فاء السببية أو واو المعية.
- **الإضمار:** ومثاله تأويل الفاعل الذي يقدره النحاة مستترا بعد الفعل إن لم يكن ظاهرا، وهذا التأويل أملاه العقل لطول عهدهم بلحاق الفاعل بفعله في الجمل، فإن افتقدوا هذا الفاعل ظاهرا، أولوه مضمرا، وتلك نتيجة طول مراقبة عقل النحوي لتركيب الجمل.

و التأويل أكان حذفا أم إضمارا هو جريرة العقل في الدرس النحوي، و النحاة لما يتأوّلون الألفاظ جاهدين، إنما ذلك عندهم بغية تصحيح اللفظ و المعنى وفق ما درج عليه كلام العرب بوجه من الأوجه الصحيحة المألوفة عندهم، و في هذا يصدق عليهم كلام إمام أهل البصرة سيبويه إذ يقول:"وليس شيء يضطرون إليه إلا وهم يحاولون بها وجها"(سيبويه، د.ت، صفحة 32)، و إن كان سيبويه يتحدث عن النحاة في تتبعهم لكلام العرب في الدرس النحوي البصري الذي يمثله هو باقتدار.

4- الخاتمة:

ما من شك أن الدرس النحوي الذي بدأ في البصرة مع أبي الأسود الدؤلي و الذي كان يصف الظواهر اللغوية وصفا سطحيا، لا يتجاوز السذاجة، لم يفلح في المحافظة على هذه السمة، إذ ما لبث أن تحول إلى التفكير العميق غبّ تأثره بالعلوم العقلية كالمنطق الأرسطي و علم الكلام، وخاصة فرقة المعتزلة التي انتشرت في البصرة، فلم يجد الدرس النحوي البصري غضاضة في الاستكانة للعقل الذي بسط سطوته عليه متجليا في:

- القياس وتعمق النحاة فيه، و بدأ مع عبد الله بن إسحاق الحضرمي، وهو مأخوذ من الفلسفة والمنطق اليونانيين.
- التعليل وتفريع النحاة له، و بدأ أيضا مع الحضرمي، وهو مأخوذ من الفلسفة و علم أصول الفقه.
- التأويل أوغل فيه النحاة كثيرا، إلى حد الكراهة أحيانا، مأخوذ من علم أصول الفقه.

ولسنا نفشي سرا إن قلنا إن النحو في البصرة أُلقي عليه رداء العقل حتى غشيه تماما، وربما صار الحضور المكثف للعقل في الدرس النحوي البصري هو عَقب أَخيل عند من ينظر إلى البصريين بعين الريبة والانتقاص، وبهذا فالاتجاه العقلي المفرط أحيانا عند البصريين يراه بعض الدارسين مزيَّة وعلامة فارقة، ويراه آخرون – في كثير من جوانبه – إيغالا مضرا بالنحو، صَرَفه إلى وجهة غير مرغوبة عند كثير من المشتغلين بعلم النحو.

وأما المنصف المتجرد فانه يقف موقفا وسطا بين من يذم إعمال العقل، وبين من يمجد ذلك، فالاتجاه العقلي في دراسة النحو عند البصريين أنصفته بعض الدراسات اللسانية الحديثة كالتوليدية عند تشومسكي مثلا، ومع ذلك بقي الإفراط في اللجوء إلى استعمال العقل متمثلا في بعض الأقيسة والتأويلات والتعليلات عيا وليا لأعناق النصوص، وعليه يمكن أن نقترح ما يلي :

– يجب اللجوء إلى العقل في بعض المسائل النحوية التي تحتاج إلى قياس أو تعليل أو تأويل.

– لا يجب الإيغال في الاعتماد على العقل خصوصا في بعض التعليلات (العلل الثواني والثوالث) وبعض التأويلات البعيدة والتي تستوجب إضافة ألفاظ إلى الجمل مثلما هو الحال مع (فاء السببية).

5- قائمة المراجع:

ابن مضاءالقرطبي. *الرد على النحاة* (الإصدار ط2). (شوقي ضيف، المحرر) القاهرة مصر: دار المعارف.

أبو البقاء أيوب الكفوي. (2011). *الكليات* (الإصدار ط2). (عدنان درويش ومحمد المصري، المحرر) دمشق – سوريا: مؤسسة الرسالة.

أبو الطيب. *مراتب النحويين، تح: محمد أبو الفضل*. مصر: مكتبة نهضة مصر.

أبو الفتح عثمانابن جني. (1954). *الخصائص* (المجلد ج1). بيروت – لبنان: دار الكتب.

أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني. (1992). *الملل و النحل* (الإصدار ط2، المجلد ج2). (أحمد فهمي محمد، المحرر) بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية .

أبو نصر محمدالفارابي. (2007). *إحصاء العلوم* (الإصدار ط2). باريس – فرنسا-: دار بيبليون.

أحمد أمين. *ضحى الإسلام* . القاهرة – مصر: مؤسسة هنداوي.

البيت للفرزدق، وهو من الشواهد النحوية المعروفة.

جلال الدين السيوطي. (1998). *الاقتراح في علم أصول النحو* (الإصدار ط1). بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية.

طلال علامة. *تطور النحو العربي في مدرستي البصرة و الكوفة* . بيروت – لبنان: دار الفكر اللبناني.

عبده الراجحي. (1986). *النحو العربي و الدرس الحديث بحث في المنهج*. ،بيروت– لبنان- : دار النهضة العربية للطباعة و النشر.

عثمان بن قنبر ابو بشر سيبويه. (د.ت). *الكتاب*. (عبد السلام هارون، المحرر) بيروت – لبنان: دار الجيل.

علي سامي النشار. (1961). *مناهج البحث عند مفكري الإسلام* . القاهرة – مصر: دار المعارف.

عوض حمد القوزي. (1981). *المصطلح النحوي نشأته و تطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري* (الإصدار ط3). الرياض – المملكة العربية السعودية: عمادة شؤون المكتبات.

كارل بروكلمان. (1974). *تاريخ الأدب العربي* (المجلد ج2). (عبد الحليم النجار، المترجمون) القاهرة – مصر-: دار المعارف.

محمد الطنطاوي. *نشأة النحو و تاريخ أشهر النحاة* (الإصدار ط2). القاهرة – مصر-: دار المعارف.

محمد بن سلام الجمحي. (1988). *طبقات الشعراء* (الإصدار ط2). بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية.

محمد عيد. (1989). *أصول النحو العربي في نظر النحاة و رأي ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث* (الإصدار ط4). القاهرة – مصر: دار عالم الكتب.

ينسب البيت لعلي بن حمزة الكسائي أحد أئمة الكوفة.